الامبريالية ، ولم يكونا في نظره ليشوشا او ينازعا الانتماء العربي لمصر او يتناقضا معه، بل يكملانها . لم يلغ عبدالناصر القوقعة الاقليمية المصرية ليقع في قوقعة اقليمية عربية ، فضلا عن أن اتجاه عبد الناصر الافرو آسيوي هذا انما هو امتداد مطور لاتجاه قائم في ايديولوجيا الافغاني ومحمد عبده ، وهو اتجاه لا يمكن نبذه من وجهة نظر ماركسية .

ان افق عبدالناصر السياسي لم يستطع ان يعانق ، عندما كتب « فلسفة الثورة » ، ما اصطلح على تسميته الان بالعالم الثالث كافة ، فاقتصر على جزء من هذا العالم المضطهد والكادح يقع في مدى بصره ، جغرافيا وتاريخيا(٩) . اذن فالسياق الذي طرح فيه عبد الناصر فكرة الدائرتين الافريقية والاسلامية انما كان سياق كفاح ضد الاستعمار ولم يكن لينطوي على نظرة جغرافية او دينية(١٠) . وهذا ما يفسر رفضه ، وهو يفاوض الانكليز للجلاء عن مصر ، ضم تركيا الى الدفاع المشترك مع الدول العربية .

ليس لنا ان ندهش اذن اذا كان عبدالناصر ، في « فلسفة الثورة » ، قد خص الدائرة الافريقية بصفحة واحدة والدائرة الاسلامية بصفحة اخرى ، في حين ان حديثه عن الدائرة العربية وقضية فلسطين قد استغرق خمس عشرة صفحة . لا شك ان ثمة عناصر اسلامية في ايديولوجيا عبد الناصر القومية العربية ، في بداية الثورة على الاقل، ولكن تلاحم النضال المصري مع نضال الشعوب العربية وتجربته مع الاخوان المسلمين ومع السعودية ، ووقوع ايران والباكستان تحت النير الامبريالي ، وتقدم وعيه الاشتراكي ، وكونه قد ضرب العمود الفقري للمجتمع التقليدي الذي يشكل الدين غطاءه الايديولوجي ، كل هذا جعل مفهومه للعروبة والوحدة العربية يفقد رويدا رويدا ملامحه الاسلامية . اذن فالدائرتان الافريقية والاسلامية ، انما كانتا نافذة على العالم ومصيره ، بخلاف الانغلاق العربي للايديولوجيا القومية التقليدية في بلدان الشرق بخاصة .

(٣)

عندما التقط عبد الناصر ، عبر الوحدة العربية ، جوهر المسألة الفلسطينية وحقيقة الغزو الصهيوني انما كان يسجل بذلك انتقالا من مرحلة التلمس الى مرحلة أريد ان اسميها بمرحلة الرومنسية الثورية . لماذا ثورية ؟ ولماذا رومنسية ؟

ثورية ، لان وصول عبد الناصر الى السلطة كان بمثابة فتح صفحة جديدة في الرؤية الرسمية العربية والموقف الرسمي العربي ازاء مسألة فلسطين ، بمعنى ان عبد الناصر كان أول حاكم عربي يعلن للجماهير العربية ، خلافا للحكام العرب وضدهم ، ان المقصود ليس فلسطين بل العرب ، وان الاستعمار هو المسؤول عن هذه الجريمة ، وبالتالي فان الغرب ليس حكما في النزاع بل هو طرف فيه ، والقضية لن تحل مع الغرب ومن خلاله بل ضده(١١) . هذا الموقف ، الذي يشكل انعطافا تاريخيا في مسيرة الثورة العربية الحديثة ، أقام حدا فاصلا ، في وعي الجماهير ، بين الامبريالية والحركة القومية العربية من جهة ، كما انه انتزع من يد الرجعية العربية ، المتحالفة مع الامبريالية ، ورقة طالما لعبت بها لتضليل الجماهير كي تستر تواطؤها مع الامبريالية ، بحجة ان التعاون مع الغرب سيدفع به الى تأييد العرب في صراعهم ضد الصهيونية .

ورومنسية ، لان عبد الناصر كان يرى الى كارثة فلسطين بمثابة نتيجة للخيانة والتآمر(١٢) . هنا ، كان عبد الناصر ، شأنه في تشخيصه الاول ، يقف مع الجماهير العربية ، سواء في احتدام عواطفه أم في حدود رؤيته . يقينا ان مثل هذا التشخيص قد التقط سببا مباشرا وكبيرا من اسباب الكارثة(١٣)، الا ان هذا السبب ليس جذر الكارثةمن جهة ، كما ان كونه السبب لا يعني ان الغاءه سيفتح طريق « نيفسكي » ، المستقيم